

الاسلام كعامل في المدنية

[بقية ما نشر في السدد الماضي]

للأستاذ أحمد أمين

والسؤال الثانية هي « الثقافة الاسلامية » وأثرها في المدنية وأريد أن أكرر هنا ما أشرت اليه من أن الثقافة الاسلامية كانت أثار العقيدة الاسلامية التي ألهمت بها . فالقرآن رفع مستوى العقل الى درجة يستطيع فيها التفكير الصحيح بما حارب من خرافات وأوهام ، وعبادة أصنام ، وبما حث على النظر في الكون ومراقبة تغيراته ، واختلاف مظاهره ، ودوام حركته ، وتوجيه العقل الى أن وراء كل المظاهر المختلفة وحدة ، فالناس على اختلاف ألْسَنَتِهِم وألْوَانِهِم يرجعون الى أصل واحد هو آدم وحواء ، والبحار والأنهار المختلفة كلها ترجع الى ما أنزل من السماء من ماء ، والعالم كله يرجع الى وحدة الخالق « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » . فهذه الوحدة في العالم تحمل على التفكير الصحيح والثقافة العميقة والنظر الفلسفي الروحي . فالقرآن من ناحية فك قيود العقل ، وهذا هو العامل السلبى ؛ ومن ناحية أخرى أخذ بيده ليُشرف على العالم من مراقب عال ، وهذا هو العامل الإيجابى من أجل هذا كانت الثقافة الاسلامية نتيجة العقيدة الاسلامية لا نتيجة شيء آخر ، فان هي اتجهت الى الاستماتة بالفلسفة اليونانية والثقافة الفارسية والهندية ، فلأن الدين حملها على ذلك وطلب منها أن تتطلب العلم حيث كان ومن أى كائن كان وقد بذر الاسلام في نفوس أصحابه بذورا تأصلت فيهم فكانوا إذا اقتبسوا من الفلسفة اليونانية أو أية ثقافة أخرى لم يكونوا مقلدين تقليدا صرفا ، إنما كانوا دائما يعملون العقل فيما نقلوا ، ويعملون العقيدة الدينية فيما قرأوا . فاذا نظرنا الى ما كتب الفارابى وابن سينا وابن رشد رأيناهم لم يقفوا موقف التليذ فحسب ، بل نقدوا وزادوا ووقفوا بين الفلسفة والدين وأمدوا كل شيء أخذوه بروح من عندهم ، فكان لثقافتهم طابع خاص وشارة تعرف بها — حتى هذا المنطق اليونانى الذى دانت له كل الأمم زاد الفزالى في بعض كتبه فصولا عن القرآن ؛ وابن تيمية وابن حزم وغيرهما نقدوا منطق اليونان وعدوه منطق شكل لا منطق مادة . وكان

وكانت الشمس في الشتاء كأنها صورة معلقة في السحاب وكان النهار كأنه يضي بالقمر لا بالشمس وكان الهواء مع المطر كأنه مطر غير سائل وكانت الحياة تضع في أشياء كثيرة معنى عبوس الجو فلما جاء الربيع كان فرح جميع الأحياء بالشمس كفرح الأطفال رجعت أهم من السفر

وينظر الشباب فتظهر له الأرض شابة ويشعر أنه في معاني الذات أكثر مما هو في معاني العالم وتمتلي له الدنيا بالأزهار ، ومعاني الأزهار ، ووحى الأزهار وتخرج له أشعة الشمس ريماء وأشعة قلبه ريماء آخر ولا تنسى الحياة عجائزها ، فريمتهم ضوء الشمس . . .

ما أعجب سر الحياة ! كل شجرة في الربيع جمال هندسى مستقل ومهما قطعت منها وغيرت من شكلها أبرزتها الحياة في جمال هندسى جديد كأنك أصلحتها ولو لم يبق منها إلا جذر حتى أسرع الحياة فجعلت له شكلا من غصون وأوراق

الحياة الحياة . إذا أنت لم تفسدها جاءتك دائما هداياها وإذا آمنت لم تعد بمقدار نفسك ولكن بمقدار القوة التي أنت بها مؤمن

« فانظر الى آثار رحمة الله كيف يحى الأرض بعد موتها » وانظر كيف يخفى في الطبيعة هذه المعاني التي تبهج كل حى ، بالطريقة التي يفهمها كل حى

وانظر كيف يجمل في الأرض معنى السرور ، وفي الجو معنى السعادة وانظر الى الحشرة الصغيرة كيف تؤمن بالحياة التي تتألفها وتطمئن ؟

انظر انظر ! أليس كل ذلك ردا على اليأس بكلمة : لا

ملنطا

على آراء اليونان وتقدس ما قال أفلاطون وأرسطو كل التقديس .
 فاذا قال أرسطو قولاً فلا يمكن إلا أن يكون صحيحاً ، وإذا كان
 الحسن يدل على غير ما يقول وجب أن نعتبر الحسن خداعاً ،
 والحقيقة ما قال أرسطو . لقد قال أرسطو إن الجسم إذا كان
 أثقل كان إلى الأرض أسرع ، ولكن صعد بعضهم من مكان
 عال ورمى في وقت واحد حديدتين وزن إحداهما ضعف الأخرى
 فوصلا إلى الأرض معاً ، ومع هذا قالوا إن الحق ما قال أرسطو ،
 ويجب أن يؤول الواقع وهكذا . وكانوا يتمدون كل الاعتماد
 على القياس المنطقي وحده يؤيدون به المذاهب والآراء ، والقياس
 المنطقي وحده وسيلة عقيمة لأنه يحملك تلم بالمقدمات تسلياً أعمى
 وتعنى فيه بالشكل . فجاءت النهضة الحديثة تشك في هذه المقدمات
 العامة وتمتحنها وتجري التجارب عليها ولا تؤمن بشيء حتى تدل
 التجارب على صحته ، وكان هذا دعامة النهضة الحديثة . والحق
 أن هذه طريقة لم تكن بعيدة عن المسلمين ولا خفيت عليهم ؛
 فالتاريخ يحدثنا أن النظام ألف في نقد آراء أرسطو ، وأن تلميذه
 الجاحظ في كتابه الحيوان بطلع اطلاعاً واسماً على أقوال أرسطو
 ثم لا يمنعها هذا التقديس ؛ بل ينقدها نقداً جريئاً ويقول قد
 جربنا قول أرسطو فلم نجده صحيحاً . ويقول : « إن قوله هذا
 غريب » ، و « هو قول لا يميزه العقل » إلى كثير من أمثال
 ذلك ، وربما فضل على قوله قولاً آخر قاله عربي جاهلي في بيت
 من الشعر ، لأنه أقرب إلى العقل . فهو بهذا قد جعل عقله حكماً
 على أرسطو ، على حين أن فلاسفة القرون الوسطى في أوروبا جعلوا
 أرسطو حكماً على العقل ، والبيروني يحكم عقله في الرياضيات ،
 ويقارن بين نظريات اليونان ونظريات الهند ، ويفضل هذه حيناً
 وهذه حيناً في كتابه الآثار الباقية ، وحيناً لا يقبل هذه ولا تلك
 ويعتمد على عقله الصرف ، ويقف النزالي في كتابه « المنقذ من
 الضلال » الموقف الذي وقفه بدمكارت فيقول : « إنه رأى
 صبيان النصراني ينشأون على النصرانية ، وصبيان اليهود على
 اليهودية ، وصبيان المسلمين على الاسلام ، وأنه لم يقنع بهذا الدين
 التقليدي التقليبي ، وطلب أن يعلم حقائق الأمور وأن يبني دينه
 على يقين ، وقال إنه بدأ بالشك في كل ذلك حتى يقوم البرهان على
 صحته ، ولم يسمح لنفسه باعتقاد حتى يتأكد من صحته » وقال :
 « كل ما لا أعلمه على هذا الوجه ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين ،

شأنهم في كل فرع هذا الشأن تقريباً . فدعوى أن المسلمين في
 ثقافتهم كانوا حفظة للثقافة اليونانية أكثر منهم مبتكرين لثقافة
 خاصة دعوى أملاها عدم الدراسة للثقافة الاسلامية دراسة وافية
 والحق أن فضلهم على المدنية الحديثة كان من الناحيتين
 جميعاً : من ناحية حفظهم لثقافة غيرهم من الأمم ولولاها لمضاعف
 كثير منها ، ومن ناحية ما أنشأوا وابتكروا وبثوا من روح في
 الثقافات القديمة . وقد بدأ علماء أوروبا يبحثون نواحي تأثير
 الثقافة الاسلامية في الثقافة الأوروبية ؛ وكان من آخر ما أظهروا
 في هذا الباب كتاب ما خلفه الاسلام Legacy of Islam تناولوا
 فيه أثر الثقافة الاسلامية في الجغرافيا والتجارة ، وفي القانون
 والاجتماع والفن والعمارة وفي الأدب ، وفي التصوف وفي الفلسفة
 واللاهوت ، وفي العلم والطب ، وفي الهيئة والرياضيات . وهذا
 البحث وإن كان آخر ما ألفوا فهو أول ما اكتشفوا من طريق
 يشرف على آثار قيمة ضخمة لا تزال تنتظر مكتشفين أبعد مدى ،
 وأقوى على تحمل مشاق الطريق

ولمنا لكي تقرب من موضوعنا نسأل هذا السؤال :
 هل كان العالم يستطيع أن يقف على درجة السلم التي يقف عليها
 الآن لو لم تكن مدينة الاسلام ؟ هل لو لم يكن في الوجود مدينة
 بغداد ومدينة قرطبة والحروب الصليبية كانت المدنية الحديثة تبلغ
 ما بلغت الآن ؟ هل كانت النهضة الأوروبية الحديثة تحدث في
 الزمن الذي حدثت فيه لو لم ترتكز على المدينة الاسلامية ؟

هذا سؤال واحد في أوضاع مختلفة والاجابة عنه يسيرة ، وهي
 اجابة بالنفي القاطع . ولا يسلم إلا الله كم كانت تتأخر المدنية
 الحديثة لو لم ترتكز على المدنية الاسلامية وتطير من على عاتقها ،
 فالتتبع لتاريخ المدينت يرى أنه حلقات يسلم بعضها إلى بعض ،
 ويستفيد لاحقا بما وصل إليه سابقها . وقد كانت المدنية
 الاسلامية هي التي في الذروة قبيل المدنية الحديثة ، ولم يكن
 بضارح بغداد وقرطبة مدينة أخرى في الصالح في مدينتيها
 وثقافتها وصناعاتها ، ونظمها الادارية والحربية . ولتوضيح
 ذلك ننظر في أسس المدنية الحديثة ونبين علاقة هذه الأسس
 بالمدنية الاسلامية

لقد بنيت النهضة الحديثة في الثقافة على أساسين وهما الشك
 والتجربة — كانت الثقافة في القرون الوسطى تعتمد كل الاعتماد

لم يزل مطموراً إلى اليوم ولم يستكشف بمد
 فقد اتصل الأوربيون بالمسلمين في الأندلس اتصالاً وثيقاً ،
 واتخذ علماءهم فلاسفة المسلمين أساتذة يتعلمون منهم ويدرسون
 عليهم ، ونشطت حركة واسعة النطاق لنقل أهم المؤلفات العربية
 إلى اللغة اللاتينية ، وهي لغة الأدباء والعلماء في القرون الوسطى ،
 حتى أن كثيراً مما بقي من مؤلفات ابن رشد حفظت إلى الآن
 باللغة اللاتينية ولا نجد أصلها بالعربية ، وكان من أشهر من قام
 بهذه الحركة « ريموند » Raymond الذي كان مطراناً لطليطلة من
 سنة ١٣٠٠ - سنة ١١٥٠ ، فقد أسس جمعية لنقل أهم الكتب
 الفلاسفة والعلمية العربية إلى اللغة اللاتينية ، فنقلوا من العربية
 أهم كتب أرسطو وما علقه عليها العرب من شروح ، كما نقلوا
 أهم كتب الفارابي وابن سينا ، وكان من أثر هذه الجمعية أن رأينا
 منطق أرسطو المترجم من العربية إلى اللاتينية يقرأ في باريس
 بعد ثلاثين سنة من عمل هذه الجمعية . وقد مررت حركة
 استفادة الأوربيين من الثقافة اليونانية في ثلاثة أدوار ، الدور
 الأول : نقل الفلسفة اليونانية والكتب العلمية من العربية إلى
 اللاتينية ، والدور الثاني : النقل من اليونانية مباشرة بعد سقوط
 القسطنطينية . والثالث : نقل الشروح العربية إلى اللاتينية
 وجاء فردريك الثاني سنة ١٢١٥ ، واتصل بالمسلمين اتصالاً
 وثيقاً في صقلية وفي الشام في حروبه الصليبية ، واقتبس كثيراً
 من آرائهم وعاداتهم وعقائدهم ، وقد وصفه المؤرخون بأنه كان
 يعجب بفلاسفة المسلمين ، وكان يعرف اللغة العربية ويستطيع
 أن يقرأ بها الكتب الفلسفية في مصادرها الأصلية . وأنشأ
 سنة ١٢٢٤ مجمعاً في نابلي لنقل العلوم العربية والفلسفة العربية
 إلى اللاتينية والعبرية لنشرها في أوروبا . وبفضل فردريك ذهب
 « ميكايل سكوت » إلى طليطلة وترجم شروح ابن رشد على
 أرسطو ، وقبل ذلك كانت قد نقلت إلى اللاتينية جمهرة من
 كتب ابن سينا واستعملت في باريس حول سنة ١٢٠٠ م
 وفي القرن الثالث عشر كانت كل كتب ابن رشد تقريباً
 قد ترجمت إلى اللاتينية ما عدا كتباً قليلة ، منها كتاب تهافت
 التهافت الذي رد به على تهافت الفلاسفة للفرغلي ، فقد ترجمت
 في القرن الرابع عشر
 وكان أهم مراكز لتعاليم ابن رشد في جامعة بولونيا وجامعة

فهو علم لا ثقة به ولا أمان معه ، وكل علم لا أمان معه فليس بعلم
 يقيني » ، وابن خلدون تنظر إلى المجتمع الانساني هذا النظم الحر
 الطليق فاستناد مما قال أرسطو وغيره ولكنه لم يتقيد به ، ونظر
 في مجتمعات لم يصل إليها علم أرسطو وهي القبائل العربية والدول
 الاسلامية ، واستنتج من ذلك كله نظرياته التي كانت ولا تزال
 محل تقدير علماء الاجتماع والتاريخ من الأوربيين وإعجابهم
 وعلى المجلة فهذه الأسس التي بنيت عليها النهضة الحديثة
 في أوروبا من تحرير العقل من قيود الأوهام ، ومن عبادة العطاء
 أمثال أرسطو ، ومن وضع القوانين بعد الملاحظة والتجربة ، وبعد
 الشك فيها اتخذوا الأقدمون قضايا مسلمة ، كله كان منبثاً في الثقافة
 الاسلامية في عصورها الزاهية . وكل ما في الأمر أن الذين
 بنوا على هذه الأسس القيمة هم الأوربيون لا المسلمون ، وأن
 من سوء حظ المسلمين أن وضعت في سبيلهم عقبات ليس منشؤها
 دينهم حالت بينهم وبين أن يتموا ما بدأوا ، وأن يشيدوا فوق
 ما أسسوا . ولكن من الحق أنا إذا أردنا أن نقوم ببناء لا تكون
 سطحيين فنقوم بظاهره ، ولا نقومباطنه ؛ ونقوم بأعلاه ،
 ولا نقوم بأساسه

ووجه آخر بجانب هذا ، وهو أن ثقافة المسلمين لم تكن
 جميعها متجهة اتجاه الفلسفة اليونانية والعلوم اليونانية ؛ فقد
 كانت لهم مناح في الثقافة خاصة بهم لم يعتمدوا فيها على غيرهم
 إلا اعتماداً ضيقاً غير مباشر ؛ فأنشأوا من علوم لغتهم كالنحو
 والصرف والبلاغة وأدبهم الذي رقوا به أدب جاهليتهم وساروا به
 على منهج خاص بهم ، لا على المنهج اليوناني ، ولا على المنهج
 الفارسي ؛ والعلوم الغريبة التي أنشأوها حول دينهم من تفسير
 للقرآن والحديث ، ومن فقه قابلوا به قضاياهم ونظامهم وحياتهم
 الاجتماعية الخاصة ، وما أسسوا له من « أصول الفقه » الذي
 لم يجروا فيه على منوال سبق - كل هذه وأمثالها كانت مظهرًا
 من مظاهر الاختراع العقلي للمسلمين ، وكل هذه كانت عوامل
 في بناء المدنية الاسلامية التي بنيت عليها المدنية الحديثة

وقد حفظ لنا التاريخ بعض الصلات التي ربطت بين المدنية
 الاسلامية والمدنية الأوروبية ، وأبان لنا كيف استمدت الثانية
 من الأولى ، وكشف لنا عن بعض الجداول التي كانت تتسرب
 من المدن الاسلامية تنصب في المدن الأوروبية ، وإن كان بعضها

في ذلك ذنب الاسلام والمسلمين ؟ اذا عرضت نفسك لتبني
فنمك صاحب البناء بالقوة فالذنب ذنب من منع لا من منع ،
وهكذا الشأن في موقف المسلمين . لقد سبقهم الفرييون باستخدام
العلم في قوة تسليحهم الى أقصى حد يمكن فيه استخدام العلم ،
فوجهوا هذه القوى الهائلة الى الشرق ، ولم يكن قد مضى بعد
من سبانه الذي سببه ما فسد من عقيدته ، وما فسد من سياسته ،
وما فسد من شؤونه الاجتماعية ، فسلط عليه الغرب كل قوته ،
فاتبته مذعورا ؛ ونظر اليه الغرب نظرة استغلال ، فساعدته على
كل ما يفيد الاستغلال ، ومنعه عن عمل كل شيء يفيد
الاستقلال ، فهو اذا أراد أن يتوقف كما يشاء ، أو يرق شؤونه
الاجتماعية كما يشاء ، أو أن يحكم نفسه كما يشاء ، أو أن يرق
أخلاقه كما يشاء ، منعه الغرب من ذلك حرصا على فائدته في هذا
الاستغلال ، والشرق لا يستطيع أن يقاوم إلا بالقوة ، والقوة محرومة
عليه . فهل بعد ذلك هو الذي يتحمل تبعه عدم اشتراكه في البناء
إني لأرجو أن الزمن ورق الأفكار السياسية التي تخطو في
هذه الأيام خطوات سريعة تجعل الغربي ينظر الى الشرق نظرة
تعاون ، فيدرك أن طريقة الاستغلال ليست أصلح الطرق حتى من
الناحية الاقتصادية ، وأن رقي الشرق والسماح له بالبناء يزيد في
صرح المدينة ويرفع بناءها ، ويسرع في علو شأنها . وكما تبين
للناس أن نظام الأقطاع وتسخير الملك للمبيد لم يكن في مصلحة
الملوك ولا المبيد ، فخطموا هذا النظام من أساسه ، وأسسوه من
جديد على تحرير المبيد وتعاون الملوك والمستأجرين ، وأرباب
الأموال والعمال ، فكذلك سيكون الشأن مع الحاكمين والحكوميين
يتعاونون ولا يتقاتلون ، ويتفاهمون ولا يتنازعون ، ويتحاكمون
إلى الرأي والعقل لا إلى القوة والسلاح . وأرجو ألا يكون
ذلك بعيداً

على أن من العدل أن تقول إن التبعة في ذلك كله لا تقع على
الفريين وحدهم ، فإن هناك عوامل في المسلمين أنفسهم جعلتهم في
هذا الموقف الحرج . فهناك علماء جامدون ضيقوا العقل ، وقفوا
موقفاً مزرعياً في تاريخ المسلمين ، وعاقوا رقيهم وتقدمهم ، فكان
كلما حاول الإصلاح يحاول ناروا عليه باسم الدين ، إن أراد إصلاح
الحاكم ناروا عليه ورموه بالمروق ، وإن أراد تنظيم الإدارة الحكومية
قالوا لا عهد لنا بهذا ، ويجب أن تتبع آباءنا وأئمتنا على آثارهم يقتنون .

وا Padua في إيطاليا ومنهما انتشرت هذه الثقافة في إيطاليا
جالية الشرقية الى القرن السابع عشر ، واستمرت كتب
، سينا في الطب سائدة الى ما بعد هذا العصر
ورجال النهضة الحديثة الذين قاموا بحركة الثورة الفكرية
أنوا يدرسون على هذه الكتب ، أو يتلمذون لمن درسوا عليها ،
روجر يكون الذي سبق أهل زمنه في معارفه وطريقة بحثه
أخذ ثقافته العلمية من الأندلس ، ودرس فلسفة ابن رشد ، والقسم
لخامس من كتابه في البصريات Optics مستمد ومسار لكتاب
بن الهيثم في هذا الموضوع نفسه

وطالب ارتفعت شكوى رجال الدين في الأندلس من أن
المسيحيين يدرسون علم العرب المسلمين ، وعابوا مطران أشبيلية
لأنه يدرس في جد فلسفة الكافرين ، يعنون المسلمين
وعلى كل حال فجعل الأمر في مدينة المسلمين كما لخصها الأستاذ
لكي Lecky خير تلخيص إذ قال :

« لم تبدأ النهضة الفكرية في أوروبا إلا بعد أن انتقل التعليم
من الأديرة الى الجامعات ، وإلا بعد أن حطمت العلوم
الاسلامية ، والأفكار اليونانية ، والاستقلال الصناعي ،
سلطان الكنيسة »

هذا هو موقف المسلمين أمس من المدنية ، ولا بد أن تلقى
نظرة على موقفهم اليوم من المدنية الحديثة . ومما يؤسف له
حقاً أن تقول إن المسلمين لا يشتركون اليوم في بناء صرح
المدنية اشتراكاً كبيراً ، لأن حديثهم هو تقليد للمدنية الحديثة ،
وقديعهم هو مدنية القرون الوسطى ، فهم في الصناعات والمخترعات
ونظم الحكومات والادارات ، وفي كتبهم التي تؤلف في العلوم
الحديثة من جغرافيا وتاريخ وطبيعة وكيمياء وما اليهما ، ونظام
مدارسهم الحديثة ومحاكمهم وقوانينهم ؛ كل هذا يقلدون فيه
المدنية الغربية . وكلما زاد التقليد فيها عدت أقرب الى الكمال ؛
وقديعهم من مثل دراسات علومهم كالنحو والصرف والفلسفة
الاسلامية ، ومن مثل قضائهم في المحاكم الشرعية ، ومن مثل
مدارسهم الدينية ، ونحو ذلك ، كلها على نمط مدنية القرون الوسطى .
فهم — في ظاهر الأمر — لا يضعون أحجاراً كبيرة في بناء
المدنية الحديثة ، ولا يلونونها بلون خاص . ولكن هل الذنب